الخطاب القرآني وقدرته على مخاطبة الأجيال اللاحقة ومواكبة السير الحضاري

عبد الكريم توري، عبد المهيمن أحمد، نورالليسذا قاسم، نورذوليلي محمَّد غزالي، رابعة العداوية محمَّد & نور حسنيرا إبراهيم
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية (USIM)

أولاً: المقدِّمة:

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على المصطفى الأمين، وعلى آله الطيِّبِين، وصحابته الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد:

القرآن الكريم حبل الله المتين، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا ينضب معينه بمرور الزَّمان وكرّ الدهور. ومن يوم هبوط آدم عليه السَّلام إلى الأرض[1] تتابع الرُّسل والأنبياء برسالاتهم إلى أقوامهم تترا كلَّما جاء أمَّة رسولها كذّبوه حتَّى ختمت سلسلة هذه الرِّسالات السَّماوية بآخرها وأشملها ببعثة أفضل الرُّسل والأنبياء محمَّد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، فكانت رسالته أفضل تلك الرِّسالات على الإطلاق وأشملها في منهجها، إذ لا يعتريها النقص ولا تعجز أمام تغيُّر الزَّمان والمكان والإنسان، فهي رسالة الله إلى العالمين كافة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، يتجدَّد عطاؤها في كل زمان ومكان ولكل الشعوب في مختلف أرجاء المعمورة.

ولئن كان الله قد خاطب بالقرآن من كان في زمن التنزيل إلا أنَّه لم يوجِّه الخطاب إليهم لخصوصية بهم بل لكونهم من أفراد النوع الإنساني الذي نزل القرآن لهدايته[2] فالنوع الإنساني حين بُعث محمَّد ρ كان قد بلغ سن الرُّشد والعقلي، فختم الله بشريعته الشرائع السابقة، وجعلها مَرِنَة

---

[1] إشارة إلى قوله تعالى [قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ] (البقرة، 37)

[2] رشيد رضا، تفسير القرآن الكريم الشهير بتفسير المنار، 23/1.

بفروعها المبنية على أصل الاجتهاد، فجُعل بذلك أمره في القضاء والسِّياسة والاجتماع شورى بين أولي الأمر من أهل المكانة والعلم والرَّأي في كل زمان ومكان.

ثانياً: هل فسّر رسول الله ε، القرآن كلّه:

هل فسّر رسول الله ε، القرآن كلّه للصَّحابة ψ ؟ مِن قائل أنَّه ε، بيّن معاني القرآن كلّها. ومِن قائل أنَّه لم يُبيِّن من معانيه إلا القليل إذا دققنا النَّظر فيما بين العلماء من اختلاف في هل بيَّن رسول الله ε معاني القرآن كلّها، نُدرِك بأنَّ الرَّأي الرّاجح هو أنَّه ε لم يفسِّر معاني القرآن الكريم كلّها، إذ لو كان قد فسَّر معانيه كلّها لما رأينا كثرة الاختلاف بين المفسِّرين في تفسيرهم للقرآن الكريم. إذ تفسير رسول الله ε، إذا صح إسناده ونسبته إليه صلى الله عليه وسلَّم يكون هو القول الفصل.

لم يفسِّر الرَّسول ρ من معاني القرآن لصحابته إلا ما استعصى عليهم فهمها ولا يمكن إدراكها إلا بتعليمهم إيَّاها[3]. ليكون التجديد في العطاء مستمرًّا وشاملاً للأجيال اللاحقة وكأنَّه ρ أراد بذلك أن يقرِّر أبديَّة القرآن الكريم وأنَّه صالح لكل زمان ومكان، وأنَّ على كل جيل من الأجيال اللاحقة أن يفسِّره بما يفتح الله عليه من فتوحات في مواجهة القضايا الجديدة ومحاولة إيجاد الحلول المناسبة لها حسب الضوابط الشرعية المعروفة.

---

[3] ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره أنَّه لما نزل قوله تعالى [الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ] (الأنعام، 82) قالوا – الصحابة – أَيُّنا لم يظلم نفسه، وشق عليهم، فقال ρ ليس بالذي تعنون ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح – لقمان – [إِنَّالشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ] (لقمان، 13) إنَّما هو الشرك، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 142/1. وأصل الحديث في صحيح البخاري. انظر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب ظلم وتظلم، الحديث رقم 32 118/1.

وفي قوله تعالى [وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهم إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ] (المؤمنون، 60) قالت عائشة g: أهو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عزَّ وجلَّ؟ قال ρ لا يا بنت الصديق، ولكنَّهم الذين يصلون ويصومون وهم يخافون ألا يُقبل منهم. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 24./3

«عن عائشة g قالت: ما كان رسول الله ρ يفسِّر شيئا من القرآن إلا آيًا بعدد علّمه إيَّاهن جبريل[4]»

ثالثاً: انطباق الخطاب القرآني للمخاطَبين به في الزَّمان والمكان (مخاطبة الناس بما يفهمون):

[وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...[5]]
اللسان هنا لا ينحصر بالضرورة في لغة القوم المتحدَّث بها فحسب، بل يشمل عاداتهم وتقاليدهم ونمط حياتهم. فإذا كان جعل علم كل نبي من المرسلين من أشبه الأمور بما في زمانه المبعوث فيه، فكان لموسى عليه السلام فلق البحر واليد والعصا وتفجر الحجر في التيه بالماء الرواء، إلى سائر أعلامه زمن السحر، وكان لعيسى عليه السلام إحياء الموتى وخلق الطير من الطين، وإبراء الأكمه والأبرص إلى سائر أعلامه زمن الطب، وكان لمحمَّد ρ الكتاب الذي لو [اجتمعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً[6]]، إلى سائر أعلامه زمن البيان[7]. وإذا كانت معجزة القرآن وتحديه للبشرية قائمًا لا ينحصر في عصر التنزيل دون سائر الأزمنة اللاحقة إلى قيام الساعة، وإذا كان العلماء هم ورثة

---

[4] قال الهيثمي في مجمع الزوائد، 303/6 رواه أبو يعلى والبزار بنحوه وفيه راوٍ لم يتحرر اسمه وبقية رجاله رجال الصحيح. أمَّا البزار فقال عن حفص وظنه ابن عبد الله عن هشام بن عروة وقال أبو يعلى عن فلان بن محمَّد بن خالد. وقد اختلف العلماء في هل بيَّن رسول اللهρمعاني القرآن كله أم لم يبينها كلها، فمن قائل أنَّه بيَّن ومن قائل أنَّه لم يبيّن إلا القليل. انظر ابن تيمية،مقدِّمة في أصول التَّفسير، تحقيق د. عدنان زرزور، 35 - 38، ومحمَّد حسين الذهبي، التَّفسير والمفسِّرون، 51/1 - 60، ومحمود فوزي، إسلاميات لكل عصر، ص 11 وما بعدها من خواطر الشعراوي جمعها محمود فوزي.

[5] إبراهيم ، 4

[6] الإسراء ، 88

[7] ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن، ص 12

الأنبياء[8] فحري بالمفسِّر الذي يقصد تفسير القرآن الكريم أن يحاول إظهار الجوانب والقضايا التي تجذب انتباه ناس عصره ليسهل إقناعهم[9] ولكن دون تكلّف أو شطط وتحميل الآيات ما لا تحتملها، والتي تخرجها من معهود العرب في كلامها[10].

من المعلوم أنَّ الإسلام دين عالمي[11] وكتابه – القرآن - كتاب خالد والتحدي به قائم مستمر، وقد تحدّى به الله أهل عصر تنزيله من أرباب الفصاحة والبلاغة من أنْ يأتوا بمثله فعجزوا[12].
فإذا كان الله تحدَّى بالقرآن عرب عصر التنزيل بفصاحتهم ومعرفتهم ألوان البيان، فماذا عن غير العرب من العجم – وعرب هذا العصر أنفسهم الذين لا يتذوّقون العربية سليقة وفصاحة كعرب عصر التنزيل - الذين لا يفقهون ولا يدركون النَّاحية البلاغية والفصَّاحة في القرآن؟

هل انحصر تحدِّي القرآن وإعجازه للبشرية في النَّاحية البلاغية والفصَّاحة فحسب؟ أم ادّخر في طياته لكل عصر ما يثبت أنَّه تنزيل من حكيم حميد؟

---

[8] إشارة إلى قوله ρ "إنَّ العلماء ورثة الأنبياء، وإنَّ الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً إنَّما ورَّثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظٍّ وافر" رواه الترمذي في سننه، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، ص722، الحديث رقم 2862، وابن ماجة في سننه باللفظ نفسه، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، ص 47، الحديث رقم 322.

[9] محمَّد أحمد الغمراوي ، الإسلام في عصر العلم، ص221 وما بعدها.

[10] تأتي أمثلة على ذلك لاحقًا.

[11] إشارة إلى قوله تعالى: [يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا...] (الأعراف ، 158)، [تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا] (الفرقان، 1)، [وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ] (سبأ ، 28)

[12] إشارة إلى قوله تعالى: [وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ...] (البقرة ، 23 – 24)
[أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ] (يونس ، 38)
[أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ](هود ، 13).
[قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا] (الإسراء ، 88)
[أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ. فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ] (الطور ، 33 - 34)

فهذا الوليد بن المغيرة من رءوس الكفر ومن أرباب الفصَّاحة والبيان يقول عن القرآن: "... فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار منِّي ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول – محمَّد – شيئاً من هذا، والله إنَّ لقوله[13] الذي يقوله لحلاوة: وإنَّه ليحطم ما تحته وإنَّه ليعلو وما يُعلى[14].

كان لديهم — الوليد بن المغيرة وغيره من الفصحاء والبلغاء العرب – من الإدراك ما يزيِّلون به بين أسلوبهم في الفصاحة والبلاغة وبين أسلوب القرآن في فصاحته وبلاغته، فلذلك وُجِّه إليهم التحدِّي[15] دون المؤمنين، ولو لم يكن القرآن على ما يعرفونه لم يكن عندهم معجزاً، ولم تقم الحجَّة عليهم به [وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ...[16]] أمَّا المنكرون الجاحدون للقرآن من أهل هذا العصر فيقول الله لهم: [سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ...[17]». ذلك ليعلموا حين يرون أنَّ القرآن الكريم لمح من طرف خفي[18] إلى الاكتشافات العلمية الحديثة التي اكتشف جلها المسلمون وطوّرها[19] غيرهم أنَّه الحق

---

[13] وإن كان قد أقر أنَّ القرآن يعلو ولا يُعلى عليه إلا أنَّ نفسه أبت أن تعترف أنَّه كلام الله [وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ] (النمل ، 14) [فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ] (الأنعام ، 33).

[14] ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم، 443/4.

[15] انظر آيات التحدِّي السّابقة في الهامش.

[16] فصلت ، 44

[17] فصلت ، 53

[18] لمح القرآن الكريم إلى هذه الاكتشافات العلمية الحديثية من طرف خفي لأنَّه ليس كتابًا علميًّا إنَّما هو كتاب هداية، فالاكتشافات العلمية الحديثة التي أشار إليها القرآن، إنما جاءت بالتبع لا بالأصالة. وسيأتي مزيد من التفاصيل بهذا الصدد لاحقاً.

[19] المسلمون هم الذين اكتشفوا كثيرًا من هذه الاكتشافات العلمية — باعتراف كثير من المثقفين الغربيين من أمثال غوستاف لوبون الفرنسي وغيره – ثم تخلفوا عن ركب الحضارة فطوَّرها الغرب على ما هي عليها اليوم. انظر محمَّد عبده ، الإسلام دين العلم والمدنية، ص 123 - 124، وعلى سامي النشار ، مناهج البحث عند مفكري

من عند الله [وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا[20]][وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ. بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ[21]]

هذه الإشارات العلمية التي مرّ عليها القرآن مرور الكرام في بعض الآيات يسمِّيها المفسِّرون المعاصرون بـ الإعجاز العلمي في القرآن الكريم وتفسيرها بالتفسير العلمي.

رابعاً: معنى التفسير العلمي؟

التَّفسير العلمي هو الكشف عن معاني الآية في ضوء ما ترجحت صحته من نظريات العلوم الكونية، أي أنَّه يأتي متأخِّراً عن اكتشاف النظرية العلمية[22]. أو هو التَّفسير الذي يُحكِّم الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن، ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء منها[23].

الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي، ص 353 – 358. لقد طوَّر الله هذه الاكتشافات العلمية على أيدي الغرب حتى وصلوا إلى الفضاء لتقوم عليهم الحجَّة كما قامت على قريش [وَلَوْجَعَلْنَاهُقُرْآنًاأَعْجَمِيًّالَّقَالُواْلَوْلاَفُصِّلَتْآيَاتُهُأَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ] (فصلت ، 44). ولذلك فقد خصّهم الله تعالى دون المؤمنين في قوله[أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ](الأنبياء ،30)[سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَافِيالآفَاقِوَفِيأَنفُسِهِمْحَتَّىيَتَبَيَّنَلَهُمْأَنَّهُالْحَقُّ...] (فصلت، 53).

[20] النِّساء ، 82

[21] العنكبوت ، 48 – 49

[22] وهبة الزحيلي ، الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ص 7

[23] محمَّد حسين الذهبي ، التَّفسير والمفسرون، 519/2

خامساً: رأي العلماء قديماً وحديثاً في التفسير العلمي:

لقد تباين رأي العلماء قديماً وحديثاً في هل أشار القرآن إلى - علوم الطبيعيات – النظريات العلمية الحديثية وجواز تفسير القرآن بها – التَّفسير العلمي - بين نافٍ مانعٍ ومثبت مجوّز[24].
وقد تشدّد في نفيه ومنعه صاحب الموافقات، الشاطبي وأطال النَّفسَ في برهنة عدم جوازه. قال: "إن كثيراً من النَّاس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخِّرين من علوم الطبيعيات والتعاليم – الرياضيات والهندسية وغيرهما - وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها... فإنَّ السَّلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه وما أودع فيه، ولم يبلغنا أنَّه تكلّم أحد منهم في شيء من هذا المدَّعي... ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر لبلغنا منه ما يدلّنا على أصل المسألة، إلا أنَّ ذلك لم يكن فدلّ على أنَّه غير موجود عندهم...[25]".

وقد خالف شارح الموافقات ومحققه عبد الله دراز الشاطبي في كثير من النّقاط التي أوردها[26].
وكذا خالفه ابن عاشور فقال: "ولا شك أنَّ الكلام الصادر عن علاّم الغيوب تعالى وتقدَّس لا

---

[24] الشعراوي ، شبهات وأباطيل خصوم الإسلام والرَّد عليها، ص 135

[25] الشاطبي ، الموافقات ، 389/2

[26] قال عبد الله دراز معقّباً على بعض النقاط التي أثارها الشاطبي بهذا الصدد، يقول تعالى: [أَيَحْسَبُالإِنسَانُأَلَّننَجْمَعَعِظَامَهُ. بَلَقَادِرِينَعَلَأَننُّسَوِّيَبَنَانَهُ] (القيامة ، 3 - 4). "فإنَّ معرفة أنَّ تسوية الأصابع على ما هي عليه يعد من أدق تكوين الإنسان وكمال صنعته، حيث امتازت تقاسيم الجلد الكاسي لها فلا يوجد تشابه بين شخص وآخر في هذه التقاسيم حتى نبَّه الله سبحانه وتعالى إليها وقال "بلى" أي نجمعها قادرين على جمعها وتسويتها على أدق ما يكون كما في تسوية البنان. إن هذا لا يعرفه العرب ووجه إليهم الخطاب به. وقد فُهم سره في هذا العصر وانبنى عليه علم تشبيه الأشخاص (ببصمة الأصابع) وجعلت له إدارة تُسمَّي (تحقيق الشخصية) الواقع أن هذه وغيرها مما لا يحصى أمور كونية عامة يفهمها كل مَنْ توجه إليه الخطاب بفهمها والاستدلال بها على الصانع الحكيم القادر. انظر تعقيبات دراز على الشاطبي في الهامش من 375/1 إلى 392. وانظر محمَّد أحمد الغمراوي ، ص267، ومصطفى مسلم ، مباحث في إعجاز القرآن، ص 162

تُبنى معانيه على فهم طائفة واحدة ولكن معانيه تطابقها الحقائق، وكل ما كان من الحقيقة في علم من العلوم، وكانت الآية لها اعتلاق بتلك الحقيقة العلمية مرادة بمقدار ما بلغت إليه أفهام البشر، وبمقدار ما ستبلغ إليه. وذلك يختلف باختلاف المقامات، ويُبنى على توافر الفهم وشرطه أن لا يخرج عما يصلح له اللفظ عربية، ولا يبعد عن الظاهر إلا بدليل ولا يكون تكلّفاً بيّنا ولا خروجاً عن المعنى الأصلي حتى لا يكون في ذلك كتفاسير الباطنية...[27]" ثم قال: "وهذا مبني على ما أسسه — الشاطبي – من كون القرآن لما كان خطاباً للأميين وهم العرب، فإنّما يعتمد في مسلك فهمه وإفهامه على مقدرتهم وطاقاتهم وأنَّ الشريعة أمية، وهو أساس واهٍ لوجوه... منها.. أن مقاصد القرآن راجعة إلى عموم الدعوة وهو معجزة باقية فلا بد أن يكون فيه ما يصلح لأن تتناوله أفهام مَنْ يأتي من الناس في عصور انتشار العلوم في الأمة، وإنَّ القرآن لا تنقضي عجائبه، ولو كان كما قال الشاطبي لانقضت عجائبه بانحصار أنواع معانيه[28].

إنَّ إشارة القرآن إلى بعض النظريات العلمية الحديثة حقيقة لا ينبغي إنكارها، وكذلك لا يجوز المبالغة في قبولها إلى جعل القرآن كتابًا علميًّا، فإنَّ هذه النظريات والاكتشافات العلمية تمر بمراحل قبل أن تكون حقيقة ثابتة، كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ ثم يستوي على سوقه، ويأخذ ذلك سنوات غير قصيرة، وهي — النظرية – في أثناء هذه السنوات معرَّضة للهدم مِن قِبَل نظرية أخرى جديدة. فمحاولة إيجاد نصوص قرآنية بتكلّف لتعضيدها — النظرية – قبل ثبوتها تُعرِّض القرآن لطعن الأعداء إذا ما قالوا أنَّ القرآن يحتوي على نظريات علمية غير صحيحة ممَّا يعني أنَّه ليس من عند الله. وهذا نقيض نية المتعجِّلين.

---

[27] ابن عاشور ، تفسير التحرير والتنوير، 44/1

[28] نفسه ، 45/1

يتذرَّع بعض المهتمِّين المولعين بالتَّفسير العلمي في هذا العصر بالقول أنَّ التَّفسير العلمي للقرآن ليس بدعة ابتدعها أصحابها في هذا العصر، بل وُجِد بين قدامى المفسِّرين مَنْ انتهجه مطبقين في عصرهم ما يقابل العلم في عصرنا كالزمخشري والفخر الرازي[29] .

والحق أنَّ التَّفسير العلمي في هذا العصر أخذ صبغة جديدة، ذلك أنَّ القدامى – إن صحَّ أن نُسمِّي تفسيرهم بالتفسير العلمي كما يقول المعاصرون المولعون بالتفسير العلمي - كانوا ينتهجونه عن العلم الأصيل غير مقلِّدين. أمَّا المهتمِّين المعاصرين من المثقَّفين، فقد دفع كثيراً منهم إلى الاهتمام بهذا النَّوع من التَّفسير ، الشعور بالانهزام الداخلي أمام الحضارة الغربية والانبهار بإنجازاتها واكتشافاتها العلميَّة الحديثة. فكلَّما ظهرت نظريَّة علميَّة جديدة يهرعون إلى نصوص الكتاب ليجدوا – ولو بشق الأنفس وتكلّف مبين - فيها ما يطابق هذه النَّظرية، وهي لا تزال في مهدها صبيَّة ليقولوا للغرب – على استحياء – إنَّ كتابنا – القرآن - قد أنبأنا منذ ألف سنة بل يزيد عن نظريتكم التي اكتشفتموها حديثاً، فكأنَّهم لا يمكنهم إظهار محاسن الإسلام إلاَّ بهذا التكلّف، وكثيراً ما لا تصمد هذه النَّظريات أمام نظريات وليدة جديدة.

وقد شحن كثير من هؤلاء – المخلصين - كتبهم وتفاسيرهم بالنَّظريات والاكتشافات العلمية الحديثة، فسَّروا بها كثيراً من النُّصوص القرآنية فخلطوا الغث بالسَّمين، فمنهم من استنبط من بعض الآيات القنابل الذريَّة والهيدروجينيَّة[30] والمواصلات الحديثة من السَّيارات والطائرات[31] والكهرباء[32] وغيرها كثير من الاكتشافات العصرية.

---

[29] محمَّد أحمد الغمراوي ، ص260

[30] أحمد محمَّد الحسين ، مطابقة الاختراعات العصرية لما أخبر به سيد البريَّة، ص 17

[31] نفسه ، ص 6، 7، 8. ومحمَّد أحمد الغمراوي ،ص380 – 381

[32] نفسه ، ص 28 استنبط القنابل الذّريَّة والهيدروجينية من قوله تعالى: [حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ...الآية] (يونس ، 24). والمواصلات: السيارات والطائرات من قوله تعالى: [وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ. وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ] (يس ، 41 - 42). وقوله تعالى: [وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ] (التكوير ، 4). قال: فالعشار

يقول رشيد رضا: "إنَّ هذه السنن – الاكتشافات - قد ذكرت في سياق الآيات الدالة على عقيدتي التوحيد والبعث، وإنَّ العلم التفصيلي بها ليس من مقاصد الوحي الذاتية، وإنَّما هو من العلوم التي يصل إليها البشر بكسبهم وبحثهم، وإنَّما يكون الوحي مرشداً لهم إليها[33]. فلذلك فقد جاء القرآن بالحقائق التي لم يكن يعرفها أحد من المخاطبين بها في زمن تنزيله بعبارة لا يتحيّرون في فهمها والاستفادة منها جملةً، وإن كان فهم ما ورائها من التفصيل التي يعلمه ولا يعلمونه يتوقَّف على ترقِّي البشر في العلوم والفنون الخاصة بذلك، وهذا من دلائل إعجاز القرآن[34].

فالعلم العصري بسنن التكوين العامة يرتقي في هذه الأجيال درجة بعد درجة وأنَّ بعض ما ينكشف منها للعلماء من النَّظريات والأصول قد ينقض بعض ما سبقه منها ولكن لم ينقض شيء منها شيئاً مما ثبت في القرآن وعلى لسان النَّبي الأمي عليه الصَّلاة والسَّلام[35].

هي الإبل فتعطيلها هو ترك السفر عليها وحمل الأثقال عليها، وإنَّما عطّلت عن السّفر ونقل السّلع والبضائع عليها بوجود السّيارات وبوابير سكة الحديد فإنَّها بعد ظهورها لم يعد أحد يسافر على الإبل أو يرسل بضائعه عليها إلا نادراً. فالآية الأولى وإن كانت تتفسَّح لهذا المعنى إلا أنَّ حمل الثانية عليه تكلّف بيِّن. فالآية تتحدَّث عن مشهد من مشاهد يوم القيامة وتكلَّف جعلها في الدنيا. والكهرباء من قوله تعالى:[وإِذَا النُّجُوْمُ انْكَدَرَتْ] (التكوير ، 2). قال: وانكدار النجوم ضعف نورها أو ذهابه بالكلية عند وجود النور الكهربائي والاستغناء به في الطرق والأسفار عن نور النجوم. وهذا لا يحتاج إلى تعليق، إذ لا يخفى على طلبةالعلم أنَّ الآية تتحدَّث عن مشهد من مشاهد يوم القيامة.

[33] رشيد رضا ، تفسير المنار، 21/12

[34] نفسه ، 419/8

[35] نفسه ، 19/12

سادساً: نماذج من التفسير العلمي عن الإنسان في القرآن:

1) تحديد جنس الجنين(الذكورة والأنوثة)

يقول الله تعالى:

وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾

وقوله تعالى :

أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾

والنطفة التي تمنى هي نطفة الرجل ...هي الحيوان المنوي.كل خلية في جسم الإنسان تحتوي على ثلاثة وعشرين زوجا من الجسيمات الملونة. وإن منها زوجاً واحداً هو المسؤول عن صفة الشخص وجنسه : ذكر أم أنثى . كل خلية من خلايا الجسم تنبئك بذلك. فخلايا الرجل تحتوي على الجسيمات الملونة XY بينما خلايا المرأة تحتوي على الجسيمات الملونة XX فإذا إنقسمت خلايا الخصية انقساما اختزاليا فإن نتائج هذا الإنقسام هو خلايا أو حيوانات منوية تحتوي على X فقط أو Y فقط أي أن هذه الحيوان المنوي الذي يحمل شارة الذكورة Y يختلف عن الحيوان المنوي الذي يحمل شارة الأنوثة X ..

و قد أستطاع العلماء أن يفرقوا بينهما في الشكل والمظهر كما فرقوا بينهما في الحقيقة والمخبر . ليس هذا فحسب ولكن للحوان المنوي الذي يحمل شارة الذكورة أسرع حركة و أقوى شكيمة في الغالب من زميله الذي يحمل شارة الأنوثة.[36]

2- الطلمات الثلاث

قال تعالى: يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث.......سورة الزمر: 6.

في أثناء تعرُّض الخلايا المضغية للأطوار ، يكون هناك ما يسمّى بالخلايا المغذية التى تأخذ على عاتقها تأمين الغذاء والهواء لحصول الحمل، ثم يتشكَّل منها ملحقات الجنين والتي منها هذه الأغشية الثلاثة التي تحيط ببعضها وهي من الداخل إلى الخارج.

الغشاء الأمنوسي Amniotic membrance: وهو يحيط بالجوف الأمنوسي المملوء بالسائل الأمنوسي، الذي يسبح فيه الجنين بشكل حر.

الغشاء الكوريوني Chorionec membrance: الذي تصدر عنه الزغابات الكوريونية التي تنغرس في مخاطية الرحم.

الغشاء الساقط Disidua membrance: وهو عبارة عن مخاطية الرحم السطحية بعد عملية التعشيش وهو نمو محصول الحمل ، وسُمي بالساقط لأنَّه يسقط مع الجنين عند الولادة[37].

---

[36] http://www.amaneena.com

[37] غازي عننابة، حقائق العلم في القرآن والسنَّة(بيروت: دار الكتب العلية، 1997م) ص 60

سابعاً: شروط تفسير القرآن تفسيرًا علميًا:

وقد وضع العلماء – المعاصرون – معالم وضوابط لتفسير القرآن تفسيراً علمياً وهي:

1) إذا ثبتت حقيقة علمية ثبوتاً قطعياً وقد تعرَّض لها القرآن الكريم ببيان ما لزم فهم النّص على مقتضاها بعد جمع النُّصوص الواردة في الشأن نفسها وعدم تعطيل المعاني الأصلية للخطاب.

2) إذا قدّم العلماء نظرية علمية ذات رجحان في الوسط العلمي من غير أن يصل إلى درجة القطع، فإنَّه جائز تفسير الخطاب بها إذا كان النّص القرآني يحتمله ضمن ضوابط الفهم العربي من غير جزم ولا قطع بأنَّه معنى النص، ثم تظل الاحتمالات الأخرى للنص مفتوحة حتى يأتي اليقين العلمي.

3) إذا قدّم بعض العلماء فرضية علمية وهي الطرح العلمي الذي لم يصل إلى مستوى الترجيح فإنَّها ليست أكثر من احتمال، فيَنْظر المفسر إليها نظره إلى أي احتمال آخر يمكن أن يُفهم النَّص بمقتضاه.

4) إذا كان النّص لا يحتمل حمْله على النَّظرية أو الفرضية فلا يحِق للمتفهِّم التعسّف في التأويل وتطويع النّص للهوى، وجرّ النّص جراًّ للدلالة على ذلك.

5) لا يجوز بحال من الأحوال جعل النّص مفتوحاً على كل نظرية وفرضية، فعلى المتفهِّم أن يكون شديد الحذر من المزالق الخطرة التي تأذن بفهم النّص على غير ما أذن الله به[38].

---

[38] محمَّد أحمد الغمراوي ،ص265 ، ومصطفى مسلم ، ص 160 وما بعدها وحبنكة ، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجلَّ، ص 237 وما بعدها.

ثامناً: أهم النتائج التي توصَّلتُ إليها الدراسة هي:

- إثبات إعجاز القرآن الكريم وخلوده إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها، وأنَّه تنزيل من حكيم حميد.
- وأنَّه لا يعتريه النقص ولا ينضب مَعِينُه، ولا يعجز أمام تغيُّر الزَّمان والمكان والإنسان.

- وأنَّه يتجدَّد عطاؤه في كل زمان ومكان، ولكل الشعوب في مختلف أرجاء المعمورة.

- وأنَّه ρ لم يشأ أن يفسِّره كلّه، فإنَّه ρ لو فعل ذلك لجفَّ معينه ولانقضت عجائبه، ولما جاز لأحد من بعده أن يتعرَّض لتفسيره، فقوله ρ هو قول الفصل في التَّفسير. [وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ[39]].

كيف كان لرسول الله ρ أن يفسِّر القرآن كلّه وفيه القضايا الكونية والعلمية التي لم تكن عقول ناس عصره – الكفار المعاندين[40] – ليقبلوها؟ وقد افتتن بعض الناس حين أخبرهم بأنَّه أُسْرِي به

---

[39] النحل ، 44

[40] أمَّا الصحابة ψ فإنَّهم كانوا يؤمنون بكلّ ما يخبرهم به الشّارع – الكتاب والسنَّة – بلا تردُّد أو شك. ولكن الرَّسول ρ لم يُفسِّر لهم هذه القضايا الكونية والعلمية لأنَّ إدراكها يعتمد على مقدِّمات لم تكن قائمة عندهم . وإن كان بعض المعاصرين فسَّروا بعض أحاديثه على أنَّها إشارة إلى السيَّارة وغيرها، مثل ما أخرجه الهيثمي في موارد الظمآن، باب فيما يحرم على النِّساء ممّا يصف البشرة وغيرها، الحديث رقم 1454، 351/1، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما «... يكون في آخر أمَّتي رجال يركبون على سرج كأشباه الرحال ينزلون على أبواب المساجد... الحديث» وفي مجمع الزوائد، 137/5، «... سيكون في أخر أمَّتي رجال يركبون على سروج كأشباه الرّحال ينزلون على أبواب المساجد... الحديث». قال الهيثمي ، رواه أحمد والطبرانى في الثلاثة ورجال أحمد رجال الصحيح إلا الطبرانى، قال: ...سيكون في أمَّتي رجال يركب نسائهم على سروج كأشباه الرحال...الحديث.

أمَّا المعاندون في عصر التنزيل والعصورالمتعاقبة، فمع وجود أدلة واضحة لديهم على صدق الرَّسول ρ لم يؤمنوا به [إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ] (يونس ، 96-97).

ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم إلى السَّماء [وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ...[41]]. إذ كانوا يعلمون أنَّهم يقطعون هذه المسافة شهرين ذهاباً وإياباً، كيف لو فسّر لهم قوله تعالى بعد ذكر المواصلات المعروفة في عصرهم: [وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ[42]]. ويقول لهم أنَّ هذا الذي [لاَ تَعْلَمُونَ] هو المواصلات التي ستكون من بعدكم كالسَّيارة والطائرة التي تقطع مسافات شاسعة وطويلة في فترة زمنية قصيرة لم تكن لتخطر بخلد أحدهم؟ لم يكونوا ليصدِّقوه.

- أنَّه ρ ترك الزَّمان يفسِّر القرآن، فتركُه تفسير القرآن إلا ما دعت إليه الحاجة هو تقرير لعالمية القرآن وأنَّه صالح لكل زمانٍ ومكانٍ، وأنَّه على كل جيل من الأجيال اللاحقة أن يفسِّره بما يفتح الله عليه من فتوحات وما يتولَّد لديه من قضايا عصرهم الجديد مع مراعاة الضوابط المعروفة.

- إنَّ القرآن الكريم وإن كان محدودًا بحروفه وكلماته إلا أنَّه غير محدود بمعانيه وتوجيهاته وحلوله ،وقد أودع الله فيه كل ما تحتاجه البشرية خلال تطوُّرها الطويل، وأنَّ على كل جيل من أجيال المسلمين إعادة قراءة القرآن وتفسيره في ضوء ما يواجهه من تحديات وفيما يحتاجه من حلول لمشكلات عصره، وأنَّ هذه الحقيقة أكَّدها علي بن أبي طالب τ حينما سُئل "هل عندكم – أي أهل البيت النبوة – شيء ما ليس في القرآن؟ – وقال مرة ما ليس عند الناس – فقال: والذي فلق الحبَّة وبرأ النَّسمة ما عندنا إلا ما في القرآن، إلا فهمًا يُعطى رجل في كتابه"[43].. كما يُمكن أن يؤكَّد ذلك بقوله تعالى: [قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا[44]]

---

[41] الإسراء ، 60

[42] النحل ، 8

[43] انظر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الدِّيات، باب العاقلة، الحديث رقم 6903، 306/12.

[44] الكهف ، 109.

وقوله تعالى: [وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ...[45]] حيث المراد بالكلمات معانيها لا الألفاظ، لأنَّ الألفاظ محدودة.

- إنَّ ترك النَّبي ρ بيان القرآن – ممَّا لا يحتاج إلى بيانه – إنَّما أراد به تدريب الأمَّة على دقَّة الفهم والاستنباط من خلال منهج عملي، وبذلك تكون العقول قادرة على الاجتهاد في الأمور التي لم ينص عليها والوقائع المستجدة التى تحتاج إلى فهم سديد في إدراكها، ومن ثَمَّ تنزيل الأحكام العملية عليها بما يتوافق مع قواعد التشريع ومقاصده. وقد أشار القرآن الكريم إلى بيان النَّبي ρ وإلى ضرورة التفكّر والاستنباط في قوله تعالى: [وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ[46]].

وصلى الله على النَّبي الأمِّي محمَّد بن عبد الله و على آله وصحبه وسلّم، وآخر دعوانا أن الحمد الله ربّ العالمين .

الخلاصة

القرآن الكريم ليس كتاباً علمياً، بل هو كتاب إرشاد. (هدى للمتقين) وكتاب صالح للناس جميعاً في كل زمان ومكان ،والتحدِّي به قائم في كل زمان و مكان ،ليعلم المشكِّكون والمتشكِّكون أنَّه تنزيل من حكيم حميد. لا ينضب معينه يجد فيه الناس جميعاً ما يروي غليلهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لتقوم عليهم الحجَّة ، وليعلم الذين أبوا إلا الكفر أنَّه تنزيل من رب العالمين وأنه ليس بمقدور أحدً من البشر أن يتكلَّم بمثل هذا الكلام أو يخطّه بيمينه.

---

[45] لقمان ، 27.

[46] النحل ، 44.

المراجع والمصادر

القرآن الكريم

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. 1391هـ/ 1971م. مقدِّمة في أصول التَّفسير. تحقيق: د. عدنان زرزور. ط 1. بيروت: دار القرآن الكريم.

ابن عاشور، محمَّد طاهر: **تفسير التحرير والتنوير**. تونس: دار التونسية للنشر، 1984م.

ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم: **تأويل مشكل القرآن**. القاهرة: دار التراث، ط 2، 1393هـ/ 1913م.

ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل: **تفسير القرآن العظيم**. المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، 1413هـ/ 1993م.

ابن ماجه، محمَّد بن يزيد. 1421هـ/ 2000م. سنن ابن ماجه. ط 1. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

الترمذي، محمَّد بن عيسى. 1420هـ/ 2000م. الجامع الصحيح سنن الترمذي. ط 1. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

الذهبي، محمَّد حسين: **التَّفسير والمفسِّرون**. بيروت: دار القلم، ط 1، د.ت.

__________: **الوحي والقرآن الكريم**. القاهرة: مكتبة وهبة، ط 1، 1406هـ/

رضا، محمَّد رشيد: **تفسير القرآن الحكيم** المعروف **بتفسير المنار**، تعليق وتصحيح سمير مصطفى دباب. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط 1، 1423هـ/ 2001م.

الزحيلي، وهبة: **الإعجاز العلمي في القرآن الكريم**. دمشق: دار المكتبي، ط 11، 1418هـ/ 1997م.

الشاطبي، إبراهيم بن موسى: **الموافقات في أصول الشريعة**. تحقيق: عبد الله دراز. بيروت: دار المعرفة، ط 1، 1415هـ/ 1994م.

عبده، محمَّد. 1384هـ/ 1964م. الإسلام دين العلم والمدنية. القاهرة.

العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر. 1421هـ/ 2000م. فتح الباري شرح صحيح البخاري.ط 3. الرياض: مكتبة دار السلام

الغماري، أحمد بن محمَّد بن الصديق: **مطابقة الإختراعات العصرية لما أخبر به سيد البرية**. القاهرة: مكتبة القاهرة، ط 6، 1391هـ/ 1977م.

الغمراوي، محمَّد أحمد: **الإسلام في عصر العلم**. مطبعة السعادة، ط1، 1393هـ/ 1973م.

فوزي، محمود. 1408هـ/ 1988م. إسلاميات لكل عصر. ط 1. بيروت: دار الجبل. 1425 هـ/ 2004 م

مسلم، مصطفى: **مباحث في إعجاز القرآن**. دمشق: دار القلم، ط 1، 1420هـ/ 1999م.

النشار، على سامي. 1967م. مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي. ط 2. مصر: دار المعارف.

الهيثمي، علي بن أبي بكر. 1407هـ. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. القاهرة: دار الريان للتراث ودار الكتاب العربي.